الخصومة والقضاء عند العرب

كان العرب في جاهليتهم يتماجدون ويتنافرون ويتناخرون وكل ذلك عندهم خصومة تقتضي قضاء . والمماجدة او المجاد ان يدعي كلٌّ من الخصمين انهُ اعزُّ شاناً من الاخر ويتباريان في ذبح الجزور وذلك نظير ما حدث بين حاتم وبني لام الطائيين . وكان من عجز عن مباراة خصمهِ يعدُّ مغلوباً وذلك لان المماجدة تقتضي مناجدة الاهلين ومن كان اغنى عصبةً واعزَّ ناصراً كان جانبهُ الاقوى . واليك مماجدة حاتم وبني لام . خرج الحكم بن ابي العاصي بن امية (وهو ابو مروان مؤسس الدولة المروانية) يريد الحيرة ومعهُ عطر وكان في الحيرة سوق يجتمع اليها العرب كل سنة وكان النعمان بن المنذر ملك العرب قد جعل لبني لام الطائيين ربع الطريق طعمةً لهم وذلك لان بنت سعد بن حارثة بن لام كانت زوجة لهُ . ومرَّ الحكم بن ابي العاصي بحاتم الطائي فسألهُ الجوار في ارض طي حتى يصير الى الحيرة فاجارهُ . وعلم بذلك بنو لام فارادوا خفر ذمتهِ سعياً وراء منفعتهم الخاصة فثار الخصام بينهم وبين حاتم وابتدروا اليد بالنصال فتاجزهم وترك في بعضهم اثراً واسرع القوم اليهم فحجزوا بعضهم عن بعض وقال بنو لام بيننا وبينك سوق الحيرة فتماجدك ونضع الرهن . ففعلوا ووضعوا تسعة افراس ثم خرجوا حتى انتهوا الى الحيرة وسمع بذلك اياس ابن قبيصة الطائي فخاف ان يعينهم النعمان ويقويهم بمالهِ وسلطانهِ فجمع رهطهُ من بني حية وقال لهم ان هؤلاء القوم ارادوا ان يفضحوا ابن عمكم في مجادهِ فقال منهم رجل عندي مئة ناقة سوداء ومئة ناقة حمراء ادماء وقال آخر عندي عشرة حصن على كل حصان منها فارس مدجج لا يرى منهُ الاَّ عيناهُ وقال حسان بن جبلة الطيء قد علمتم ان ابي قد مات وترك مالاً كثيراً فعليَّ كل تمر او لحم او طعام ما اقاموا في سوق الحيرة . ثم قام اياس فقال عليَّ مثل جميع ما اعطيتم كلكم . ثم ان اياس قال احملوني الى الملك النعمان وكان بهِ نقرس فحمل حتى أُدخل عليهِ فقال انعم صباحاً ابيت اللعن . فقال النعمان وحيَّاك الهلك . فقال اياس انَّ اخاك (اي انسباء زوجتك) بالمال والخيل وجعلت بني ثعل في قعر الكنانة اظنَّ اخاك ان يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جوين ولم يشعروا ان بني حية بالبلد فان شئت فاجزناك حتى يسفح الوادي دماً فليحضروا لمجادهم غداً عند مجمع العرب . فقال النعمان يا احلما لا تغضب فاني ساكفيك . وارسل النعمان الى اخيهِ انظروا ابن عمكم حاتماً فارضوهُ . فخرج بنو لام الى حاتم ونزلوا لهُ عمًّا بينهم وبينهُ والمتحصل من هذه الرواية المنقولة باختصار عن ديوان حاتم ان الفئتين المتماجدتين كانتا تتحاربان بدليل

قول احد نصراء حاتم " عندي عشرة حصن على كل حصان فارس مدجج لا يرى منهُ الاَّ عيناهُ " فلو لم يكن هناك اختبار فراسة وبأس لما انتفى التدجج

اما المنافرة ويراد بها المحاكمة لدى قاضٍ في من من الخصمين اعز نفرًا كقول النجاشي

وان شئتمُ نافرتكم عن ابيكمُ الى مَن اردتم من تهامٍ ومنجدِ

ويسمَّى النفار منافرة ومن ذلك ما كان بين جرير بن عبدالله البجلي وخالد بن ارطاة الكلبي وهما انهما اختلفا ايهما اعزُّ نفرًا فقال خالد لجرير ما تجعل قال الخطر في يدك قال خالد الف ناقة حمراء في الف ناقة حمراء قال جرير الف قينة عذراء في الف قينة عذراء وان شئت فالف اوقية صفراء لالف اوقية صفراء . قال خالد من لي بالوفاء قال جرير كنيلك اللات والعزى واساف ونائلة و يعوق ونسر فمن عليك بالوفاء . قال خالد ود ومناة وقلس ورضا[1] قال جرير لك بالوفاء سبعون غلامًا يوضعون على ايدي الاكفاء من اهل الله . فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب على ايدي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس في اشراف من قريش وحكَّموا الاقرع بن حابس وكان عالم العرب في زمانهِ . فقال الاقرع ما عندك يا خالد فقال تنزل البراح ونطعن بالرماح ونحن فتيان الصباح[2] فقال الاقرع ما عندك يا جرير قال نحن اهل النهب الاصفر والاحمر المعتصر نخيف ولا نخاف ونطعم ولا نستطعم ونحن حيٌّ لقاح نطعم ما هبَّت الرياح نطعم الشهر ونضمن الدهر . فقال الاقرع واللات والعزى لو فاخرت قيصر ملك الروم وكسرى عظيم فارس والنعمان ملك العرب لنفرتك عليهم

واشهر منافرة في الجاهلية منافرة عامر بن الطفيل مع علقمة ابن الاحوص حين قال لهُ علقمة الرئاسة لجدي الاحوص وانما صارت الى عمك ابي براء من اجلهِ وقد استنَّ عمك وقعد عنها فانا اولى بها منك وان شئت نافرتك . فقال لهُ عامر قد شئتُ والله لانَّا اشرف منك حسبًا واثبتُ نسبًا . واطول قصبًا . فقال علقمة انا فرك واني لبرٌّ وانك لفاجر . واني لوَلود وانك لعاقر . واني لوافٍ وانك لغادر . فقال انا فرك اني اسمى منك سمةً . واطول قمةً . واحسن لمة . واجعد جمة . وابعد همة . فقال علقمة لا انا فرك اني انا جميل وانت قبيح ولكني انا فرك اني اولى بالخيرات منك . فخرجت ام عامر فقالت نافرهُ ايكما اولى بالخيرات ففعلوا على ان جعلوا مئة من الابل يعطيها الحكم الذي ينفر عليهِ صاحبهُ . فخرج علقمة ببني خالد بن جعفر وبني الاحوص ومعهم القباب والجزر والقدور ينحرون في كل منزل و يطعمون وخرج عامر ببني مالك وقال انها لمقارعة

(١) كلها اسما اصنام كانت العرب تعبدها (٢) البراح المتسع من الارض لا زرع بها . كناية عن كثرة عددهم . وفتيان الصباح اي فتيان الغارات لان اكثر الغارات تقع صباحًا كناية عن بأسهم

عن احسابكم فاتخصوا بمثل ما شخصوا بهِ وقال لعمهِ ابي براء اعني فقال صبي فقال كيف اسبك وانت عمي فقال وانا لا اسبكَ الاحرص وهو عمي . ولم ينهض معهُ فجعلا منافرتهما الى ابي سفيان بن حرب بن امية ثم الى ابي جهل ابن هشام فلم يقولا بينهما شيئًا ثم رجعا الى هرم الفزاري فقال نعم لاحكمنَّ بينكما فاعطياني موثقًا اطمئن بهِ ان ترضيا بحكمي وتسلما لما قضيت بينكما ففعلا . فاقاما عندهُ اياماً ثم ارسل الى عامر فاتاهُ سرًّا فقال قد كنت احسب ان لك رأيًا وان فيك خيرًا وما حبستك هذهِ المدة الاَّ لتنصرف عن صاحبك أتنافرُ رجلاً لا تفخر انت ولا قومك الاَّ بآبائهِ فما الذي انت بهِ خيرٌ منهُ . فقال عامر نشدتك الله ان لا تفضل عليَّ علقمة فوالله لئن فعلتَ لا أُفلح بعدها ابدًا هذه ناصيتي فاجززها واحتكم في مالي فان كنت لابدَّ فاعلاً فسرّ بيني وبينهُ . فقال انصرف فسوف ارى من آرائي . فانصرف عامر وهو لا يشك انهُ ينفرهُ عليهِ ثم ارسل الى علقمة سرًّا فقال لهُ ما قال لعامر وقال لهُ افتاخر رجلاً هو ابن عمك في النسب وابوهُ ابوك وهو مع ذلك اعظم منك غناء واحمد نقاء واسمح سماحًا فما الذي انت بهِ خير منهُ . فردَّ عليهِ علقمة ما ردَّ بهِ عامر وانصرف وهو لا يشك انهُ ينفر عامرًا عليهِ . فارسل هرم الى بنيهِ وبني اخيهِ وقال لهم اني قائل فيهم غدًا مقالة فاذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر[٣] فلينحرها عن علقمة وليطرد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر وفرّقوا بين الناس لا يكونوا بينهم جماعة . ثم اصبح هرم فجلس مجلسهُ واقبل عامر وعلقمة حتى جلسا فقال هرم انكما يا ابني جعفر قد تحاكمتما عندي وانتما كركبتي البعير لتعان الارض وليس فيكما واحد الاَّ وفيهِ ما ليس في صاحبهِ وكلاكما سيدٌ كريم . ولم يفضل واحدٌ منهما على صاحبهِ فكيلا يجلب بذلك شرًّا بين الحيين ونحر الجزر وفرّق على الناس . وقد زعم الاعشى انهما حكماهُ وانشأ قصيدة من غرر الشعر جاء بها على بعض ما يعدونهُ مولي الاثرة بالشرف منها

ان الذي فيهِ تماريتما بُيِّنَ للسامع والناظرِ[٤]
علقم لا تسفهنَّ ولا تجعلنَّ عرضك للوارد والصادرِ[٥]
علقم ما انتَ الى عامر الناقض الأوتار والواترِ
ان ترجع الحقَّ الى اهلهِ فلست بالمدي ولا النائرِ[٦]

---

(٣) جمع جزور لما يذبح من الابل (٤) تماريتما تنازعتما (٥) عرضك استعارة كنائية اراد بها منهلاً ولذلك ذكر الوارد والصادر استعارة تخييلية (٦) المدي هو المدى بالفتح والقصر وهو ما مد من الثوب الناشر اسم فاعل من نرت الثوب نيرًا اي جعلت له نيرًا وهو علم للثوب وهدبه ولحمته وهذا هو المراد هنا وهذا مثل يضرب لمن يتبرى من الشيء كتبرئهم لا في العير ولا في النفير

ولستَ بالسلم بذي نائلٍ ولستَ في الهيجاء بالجاسرِ
ولستَ بالاكثر منهم حصًى وانما العزّة للكاثرِ (٧)
ولستَ في الاثرين من مالكٍ ولا ابي بكر اولي الناصرِ (٨)
هم هامة الحيّ اذا ما دُعُوا ومالك في السؤددِ الفاخرِ (٩)
سدت بني الاحوص لم تعدهم وعامرٌ ساد بني عامرِ
سادَ وألفى قومهُ سادةً وكابرٌ سادوك عن كابرِ
فاصبر على حظك مما ترى فانما الفلج مع الصابرِ (١٠)
حكّموهُ فقضى بينكم ابلج مثل القمر الباهرِ
لا يأخذ الرشوة في حكمهِ ولا يبالي غبن الخاسرِ
وأوّلَ الحكم على وجههِ ليس قضائي بالهوى الجائرِ
قد قلتُ شعري فمضى فيكمُ فاعترف المنفور للنافرِ

وكانوا يسمّون الدعوى قضية قال الصلتان العبدي في فصلهِ بين الفرزدق وجرير

انا الصلتان والذي قد علمتمُ متى مايحكّم فهو في الحكم صادعُ
اتتني تميم حين هابت قضاتها واني لبالفضل المبيّن قاطعُ
كما انفذ الاعشى قضية عامرٍ وما لتميم عن قضائي رواجعُ
ولم يرجع الاعشى قضية جعفرٍ وليس لحكمي آخر الدهر راجعُ

ومن هذا القبيل نستخلص ان الحكم عندهم كانت اعادةُ النظر فيهِ جائزةً وذلك بمثابة استئنافهِ وتمييزهِ عندنا ولكن بعض الاحكام كان لا رجوع فيها كما قال الصلتان "وليس لحكمي آخر الدهر راجعُ" وكما قال ذو الاصبع العدواني

ومنّا حكَم يقضي فلا يُنقض ما يقضي

وهذا اشبه بحكم المحكمين في هذا العصر اذا اشترط في تحكيمهم ان لا استئناف ولا تمييز يتعقب حكمهم وهو وجه شرعي معمولٌ بهِ قديمًا وقد نصّ عليهِ دستور الاحكام العثماني

وقد افادنا الصلتان بقولهِ "اتتني تميم حين هابت قضاتها" ان بعض القضاة كانوا يستعفون

(٧) الحصى مجاز مرسل يراد بهِ العدد والمراد بهِ هنا عدد الاعوان
(٨) الاثرين جمع اثرى اي ذي ثروة . ومالك هو جد عامر بن الطفيل بن مالك . وابو بكر عم جده وهو عبيد بن كلاب بن ربيعة (٩) هامة القوم استعارة تحتيتية اي اشراف القوم
(١٠) الفلج الفوز وهو استعارة تهكمية كما قال المحيطة في شماء الزبرقان

من القضاء في بعض الدعاوي وقد جرى ذلك كثيرًا عندهم ومن ذلك ما ورد معنا في منافرة عامر وعلقمة انهما جعلا منافرتهما الى ابي سفيان والى ابي جهل فلم يقولا شيئًا اي انهما استعفيا

اما مقاطع الحكم عندهم فقد ذكرها زهير بن ابي سلمى المزني في قوله

فان الحق مقطعهُ ثلاث يمين او نفارٌ او جلاء

وهذه المقاطع هي قوام احكام الشريعة الاسلامية ولذلك قال عمر بن الخطاب لو ادركت زهيرًا لوليتهُ القضاء . فالجلاء الاقرار والنفار الشهود واليمين معروف ولا مقطع بعد

وكانوا يضعون وضع اليد بالمنزلة التي تضعها فيهِ احكام هذا العصر ولذلك احتجَّ بهِ سنان ابن الفحل الطائي في خصومة على بئر قال

فانَّ الماء ماء ابي وجدي وبئري ذو حفرتُ وذو طويتُ

اما قضاة العرب فكانوا من ساداتهم المشاهير فلا ينال هذه المرتبة الاَّ من عرف بالمروءة وعلوّ الهمة وسداد الرأي قال زهير بن ابي سلمى يمدح سنان بن ابي حارثة المري

متى يشتجر قوم يقل سرواتهم هُمُ بيننا فهم رضى وهمُ عدل (١)

هم جدَّدوا احكام كل مضلة من العقم لا يلفى لاشتاتها فصلُ

بعزمة مأمور مطيع وآمرٍ مطاع فلا يلفى لحزمهم مثلُ .

وقد ورد معنا اسماء بعض من كانوا يتقاضون اليهِ ومنهم ايضًا القلمس وفيهِ تقول هند بنت الخس الايادية احدى شهيرات نساء العرب وقد تحاكمت اليهِ هي واختها خمعة

اذ الله جازى منعمًا بوفائهِ فجازاك عني يا قلمس بالكرمْ

ومما يجدر بي ان اذكرهُ انهم كانوا يجيزون للحكم ان يحكم قبل ان يسمع كلام الخصمين وشاهد ذلك ما ورد عن منافرة هاشم بن عبد مناف وابن اخيهِ امية بن عبد شمس بن عبد مناف فانهما تنافرا الى الكاهن الخزاعي في خمسين ناقة سود الحدق يخرجها ببطن مكة والجلاء من مكة عشر سنين فخرج كلٌّ منهما في نفرٍ فنزلوا على الكاهن فقال قبل ان يخبروهُ خبرهم والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر لقد سبق هاشم امية الى المفاخر . فنفر هاشمًا وقال لامية تنافر رجلاً هو اطول منك قامة واعظم منك هامة واحسن منك وسامة وافل منك لامة واكثر منك ولدًا واجزل منك صفرًا . فقال امية من اتكأت الزمان ان جعلناك حكمًا امين ظاهر خير الله

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانت لعمري الطاعم الكاسي

(١) اشجر قوم اختلفوا وسرواتهم ساداتهم . ورضى مرضيون وعدل عادلون